

الطريقة الأنثروبولوجية لدراسة المجتمع

للدكتور أحمد أبو زهر

ليست هذه دراسة تفصيلية في أصول مناهج البحث الأنثروبولوجي و فلسفتها ، وإن كنا سنتعرض فيها .. بطريق غير مباشر - لبعض مشكلات المنهج . وإنما غرضنا هنا هو توضيح بعض النقط التي لا تزال غامضة عن طبيعة الدراسات الأنثروبولوجية ، وإبراز الخصائص والسمات الجوهرية التي يجب توافرها في أي بحث اجتماعي حتى يمكن اعتباره دراسة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو علم الإنسان الاجتماعي Social Anthropology ولنضع المشكلة في صورة بسيطة ساذجة : لماذا نعتبر بعض الكتابات مثل دراسة الأستاذ إيغانز برينشارد (أستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية في أكسفورد والأستاذ السابق لعلم الاجتماع بالجامعة المصرية القديمة) عن النوير في السودان الجنوبي ، أو كتاب المرحوم الأستاذ رادكليف براون (الذي كان أستاذاً للاجتماع هذه الكلية حتى عام ١٩٤٩) عن الاندمان في المحيط الهندي ، أو كتاب الدكتور ريسيتيانى (الذي كان مدرسا للأنثروبولوجيا بجامعة القاهرة - فؤاد الأول حينذاك) عن الكبسجيس (١) في شرق افريقية دراسات في علم الإنسان الاجتماعي ، بينما لا نستطيع أن ننظر هذه النظرة إلى بعض الكتابات الأخرى الهامة مثل كتاب لين عن الحياة الاجتماعية في مصر أو كتاب ديورا عن الهند (٢) ، رغم أن هذه الطائفة الأخيرة من الكتب ، أو بعضها على الأقل - تمتاز بتفصيلات دقيقة وعرض وافٍ جذاب لتعادلات والتقاليد وأنماط السلوك في تلك المجتمعات بشكل لا يتوافر في كثير من الدراسات الأنثروبولوجية المعتمدة ؟

Evans-Pritchard (E.F.): *The Nuer*. (Oxford, 1940); Radcliffe-Brown (A.R.): (١) *The Andaman Islanders*. (Free Press, 1948); Peristiany (J.G.): *The Social Institutions of the Kipsigis*. (Routledge, 1939).

Lanc (E.W): *The Manners and Customs of the Modern Egyptians*. (٢) (Every man's, 1936); Dubois (Abbé J.A.): *Hindu Manners, Customs and Ceremonies*. (Oxford, 1947).

للإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نحدد أولا مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية ونزيل بعض ما علق بموضوعها وغايتها من غموض وإبهام وتضارب .

(١)

يرتبط مفهوم الأنثروبولوجيا الاجتماعية في كثير من الأذهان بدراسة الشعوب البدائية ، وارتكنا على هذا الفهم نشأت انتمزة في بعض الجامعات بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع ، على أساس أن علم الاجتماع يتناول دراسة ظواهرات ومفومات الحياة الاجتماعية الأكثر تطورا أو تقدما ، ومشكلات المجتمع المتحدين ، والمجتمع الأوروبي على الخصوص . ويرجع هذا الفهم إلى حد كبير إلى نفس نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية . فقد كان العلم يقصر اهتمامه ، بل ولا يزال يهتم اهتماما خاصا ، بالمجتمعات البدائية والمتخلفة ، وكان الأنثروبولوجيون الأوائل يعتمدون في الأغلب في دراساتهم على كتابات وتقارير الرحالة والمبشرين عن تلك الشعوب ، وذلك قبل أن يبدأ الجيل التالي من العلماء بدراسة القبائل والمجتمعات البدائية دراسة على الضيقة تعتمد على الملاحظة المباشرة . وقد يكون السبب في تركيز الاهتمام على المجتمعات البدائية هو - كما يقول ليفانز پريتشارد - أن تلك المجتمعات آخذة في الزوال بالتدرج نتيجة لازدياد اتصالهم بالعالم الخارجي ، وما يترتب على ذلك في العادة من غزو ثقافة الرجل الأبيض المتحضر أو الثقافة الغربية واكتساحها الثقافات الأصلية المتوطنة ، وبالتالي هدم أسس التماسك الاجتماعي في تلك المجتمعات . فالمجتمعات البدائية تمر الآن بمرحلة تطور هائل تغير بموجبه العادات والتقاليد والقيم والنظم الأصلية تغيرا جوهريا ، وعلماء الأنثروبولوجيا يشعرون لذلك بأن الواجب يتنظيم العمل على تسجيل ملامح هذه الحياة وحفظها للأجيال التالية في شكل دراسات علمية وافية قبل أن تزول تماما . ولكن قد يكون سبب الانصراف إلى دراسة هذه الشعوب السهولة النسبية التي يستطيع بها الباحث ملاحظة العادات الغربية غير المألوفة^(١) ولكن إلى جانب هذا هناك اعتبارات أخرى منهجية تتعلق بنفس غاية الأنثروبولوجيا الاجتماعية . تحتم قصر الجهود على دراسة المجتمعات البدائية

وخاصة في المراحل الأولى من حياة هذا العلم الناشئ ، وأعنى هذه الاعتبارات النظرية الشاملة الكلية الشاملة التي ينظر بها الأنثروبولوجي إلى المجتمع ، والتي يحاول تحقيقها في دراسته . فأى ثقافة من الثقافات تؤلف نسقا متكاملا ، ومهمة الأنثروبولوجي هي دراسة النظم الاجتماعية المختلفة على أنها أجزاء في هذا النسق . وليس من شك في أنه من الأسهل رؤية المجتمع البدائي كوحدة كلية كما أن من الأسهل ملاحظة تداخل النظم الاجتماعية وتفاعلها أحدها مع الأخرى في المجتمعات البدائية البسيطة عن ملاحظة ذلك في المجتمعات المتحضرة المعقدة . فالمجتمع البدائي يمتاز بأنه أكثر بساطة في بنائه الاجتماعي وأكثر تجانسا ؛ فهو أصغر في المساحة وأقل في عدد السكان وفي تشعب العلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تقوم بين أفرادها ، كما أنه يمتاز ببساطة النظام الاقتصادي وقلة التخصص المهني أو حتى انعدامه ، ومداخلة الآلات والأدوات التي يعتمد عليها (١) .

ولكن هذا لم يمنع على أي حال من أن تكون هناك دراسات أنثروبولوجية عن مجتمعات أكثر تقدما وتعددا . وبأيدنا الآن دراسات ممتازة عن بعض المجتمعات الإقليمية في الهند والصين واليابان وإيرلندا وآسيا وكندا ومصر والولايات المتحدة (٢) ؛ كما أن هناك دراسات أخرى كثيرة جدا لم تنشر بعد عن بعض تلك المجتمعات الإقليمية في تركيا وفرنسا واليونان وقبرص ؛ وأستطيع أن أضيف إلى هذه القائمة من الأبحاث غير المنشورة دراستي عن النظم الاجتماعية في الواحات الخارجية ؛ وأخيرا تلك الدراسة التي نالت بها صاحبها درجة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا الاجتماعية في أكسفورد في العام الماضي وتناولت تحليل البناء الاجتماعي للمحلات سفردج Selfridge's ، وهي من أكبر المحلات التجارية في لندن .

(١) Evans-Pritchard : Inaugural Lecture: pp. 3-4 .

(٢) من أهم هذه الدراسات التي كتبها : Dube (S. C.) : *Indian Village*. (London, 1953) ; Fei (H.) : *Peasant Life in China*, (London, 1943) ; Emree (J.F.) : *A Japanese Village* (London, 1946) ; Arensberg (C.M.) and Kimball (S.T.) : *Family and Community in Ireland*. (Harvard, 1948) ; Pitt-Rivers (J.A.) : *The People of the Sierra*. (London, 1954) ; etc., etc...

قلنا إن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تدرس النظم الاجتماعية السائدة في أي مجتمع كوحدة متكاملة متماسكة . ولكن ألا نعطينا كتابات لين وديبوا وأمثالهما صورة كاملة شاملة عن المجتمعات التي تعرض لها ؟ إن كتاب « المصريون المحدثون » لا يكاد يغفل ناحية من نواحي النشاط الاجتماعي في مصر في العصر الذي كتب فيه ؛ فهو يعرض لنا في فصوله الثانية والعشرين (عدا المقدمة والتذييلات) مسائل كثيرة مشوقة مثل خصائص المصريين وطابعهم وطبيعة بلادهم ، وأحوالهم المنزلية والاجتماعية والاقتصادية ، ويتبع الأضوار المختلفة التي يمر بها الفرد منذ يولد حتى يموت ، كما يعطينا وصفا تفصيليا للمعتقدات والشعائر الدينية والسحر والشعوذة والاحتفالات والمهرجانات المختلفة ، وغير ذلك .

وكتاب ديبوا القيم يصف لنا في صفحاته التي تزيد على السبعائة صفحة كثيرا جدا من ملامح الحياة الاجتماعية في الهند . في القسم الأول يتكلم عن نظام الطوائف الهندية على العموم بكل أقسامها وتفرعاتها المعقدة ، وبين العلاقات بين أقسام الطائفة الواحدة من جهة وتلك التي تنظم الأوضاع بين مختلف الطوائف من جهة أخرى ، كما يعرض قواعد السلوك التي تنظم العلاقات بين الأفراد بحسب فوارق السن والجنس والمركز الاجتماعي ، ويفصل القول في القيم الخلقية والجمالية والاقتصادية السائدة في كل طائفة ، ويتكلم عن تنظيم الحياة المنزلية وعن العلاقة بين الرجل والمرأة وعن نظام الزواج والقرابة وعن القيود والتحريمات المفروضة على أنواع معينة من الطعام والشراب ، وغير ذلك . ويخصص ديبوا القسم الثاني من كتابه لدراسة طائفة البراهمة بالتفصيل ؛ بينما يتناول القسم الثالث مسائل الدين عامة والمعتقدات والمعابد والآلهة وأنواع العبادات وخاصة عبادة الحيوان ، ثم بين العناصر النديبية في النظم الإدارية والقضائية . وواضح أن هذه هي نفس الموضوعات التي يتطرق إليها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية في أبحاثهم وكتاباتهم . ولكن كتابات أرنهال والمبشرين ، وكذلك كتابات الأنثروبولوجيين الأوائل في القرن التاسع عشر والسنين الأولى من هذا القرن كانت تتميز بأنها مجرد

سرد وصفي للعادات والتقاليد ، أى المظاهر الخارجية للثقافة السائدة في المجتمع المدروس ، دون أى محاولة جديّة لتحليل – إن كان ثمة تحليل على الإطلاق ، ودون محاولة ربطها بعضها ببعض أو توضيح العلاقة بينها . وتختلف الدراسة الأنثروبولوجية المعاصرة عن ذلك في أنها تهتم بتبين وتحليل التشابك والترابط بين النظم الاجتماعية وتفاعل هذه النظم بعضها مع بعض . فمن العيب لدى لا طائل تحته محاولة عزل أى نظام اجتماعي ودراسته على حدة بعيداً عن بقية البناء الاجتماعي . وأى نظام اجتماعي ، سواء كان نظام القرابة أو النظام السياسي أو الاقتصادي أو السحر أو الدين ، لن يمكن فهمه إلا بإرجاعه إلى النظم الأخرى وبالنسبة لهذه النظم ، وذلك لمعرفة وظيفة هذا النظام ، أى الدور الذي يؤديه في المحافظة على تماسك النسيج الاجتماعي كله . وأى دراسة أنثروبولوجية لن تعتبر دراسة علمية صحيحة إلا إذا بينت علاقة أى نظام بسائر النظم الأخرى ، وبالتالي مكانه من النسيج الاجتماعي . ولم تقتصر على مجرد السرد والوصف .

ولضرب مثلاً ندين به الفرق بين الوصف البسيط للظواهر الاجتماعية والدراسة التكاملية الصحيحة .

في الفصل الثامن والعشرين من كتابه « المصريون المحدثون » يتكلم لين عن « الموت والشعائر الجنائزية Death and Funeral Rites » فيتناول بالوصف الخطوات التي يقوم بها الناس حين يدخل أحدهم في دور الاحتضار ، ويتابع كل العادات والأفعال التي تتعلق بتهيئة الجسد للدفن ثم تشييع الجنازة ، ويصف لنا عملية الدفن كما يصف القبر ، ويتكلم عن معتقدات الناس عن حياة الروح بعد الموت ، وغير ذلك من مسائل . وفي مجال وصفة للقبر والدفن يقول : « إن حفرة القبر تكون على العموم من الاتساع بحيث تكفي لدفن أربعة أجساد أو أكثر . وحين يراد دفن الذكور والإناث جميعاً في نفس الحفرة – وهذه ليست العادة الشائعة المتبعة – يقام حاجز ليفصل أجساد أحد الجنسين عن الآخر⁽¹⁾ . أما الباحث الأنثروبولوجي فلن يقف عند حد هذه الملاحظة ، بل سيرى في هذه العادة ولا شك انعكاساً لطبيعة العائلة

في مصر وتنظيمها وتماسكها كوحدة قرابية واقتصادية وسياسية متميزة . إذ أنه سيلاحظ في نفس الوقت أن أفراد العائلة وحدهم هم الذين يدفنون في نفس القبر . كذلك سوف يهتم بدراسة درجة القرابة بين الأفراد الذين يباح دفنهم في القبر الواحد، وسيرى حينئذ أنهم جميعاً ينتمون في الأغلب إلى العصبية القريبة كالإخوة مثلاً أو الأب وأبنائه . وسوف يظهر له أن هناك ترتيباً في أحقية الدفن ، بمعنى أنه يأتي بعد العصبية القريبة أعضاء العصبية الأقل قرباً والذين يلونهم مباشرة مثل أبناء العمومة ، ثم أفراد العصبية الأكبر بعداً مثل أبناء العمومة من الدرجة الثانية وهكذا . وقد يرى في ذلك ندبلاً على اختلاف قوة الروابط العائلية التي تقوم في الأصل على مبدأ العصبية وتدرجها . بل إنه قد يقارن بين هذه الروابط من ناحية وتدرج الالتزامات السياسية مثل واجب الأخذ بالثأر أو المساهمة في دفع ائدية ، والالتزامات الاقتصادية كوجوب الإنفاق والمساعدة وقواعد الوراثة والتوريث وما إلى ذلك من الناحية الأخرى . وقد يلاحظ الباحث الأثروبولوجي أيضاً أنه في كثير من الأحيان حين تموت المرأة المتزوجة فإنها تدفن في مدافن عائلة أبيها وليس في مدافن عائلة زوجها . فالزواج لم يفقدها شخصيتها القديمة ولم يقطع علاقاتها تماماً بعائلتها الأصلية التي ترتبط بها بروابط العصبية ، ولم يحرمها من الانتساب إلى الأب بل تظل تحمل اسمه ، ويكون لها الحق في أن ترثه كما أنها قد ترث وتورث بعض أفراد عصبيتها في حالات معينة . فروابط العصبية ، أو روابط القرابة في سلالة الذكور . تظل قائمة فعالة حتى بعد الزواج ، رغم أن المرأة تنتقل بالزواج من بيت أبيها إلى بيت الزوج . ومن هذا لا بد أن ينطرق الباحث إلى دراسة مشكلة التعارض بين مبدأ انتقال الزوجة إلى بيت الزوج patrilocality ورابطة القرابة الأبوية patrilineality ، وما يفرضه كل من المبدأين من واجبات والتزامات وحقوق . ولكن الباحث سوف يلاحظ أيضاً أنه في بعض الحالات تدفن المرأة المتزوجة في قبر أهل الزوج ، وأن هذا يحدث في الأغلب حين يكون مضي على الزواج مدة طويلة أنجبت المرأة أثناءها ذكورا بلغوا مرتبة الرجال ، ففي مثل هذه الأحوال تدفن المرأة (الأم) حيث سيدفن أبناؤها . وسيرى في ذلك رمزا واضحا على أن المرأة تصبح عضواً في عائلة الزوج ليس بمجرد قيام رابطة الزواج وإنما لإنجاب الأبناء الذكور الذين سيحملون اسم عائلة

الزوج ويحافظون على استمرارها في الوجود . فالمرأة تدعى (تكبر) في بعض أنحاء النضيد وفي الواحات الخارجية مثلا مادامت لم تنجب أبناء ذكورا . وعلى الرغم من أن الناس يعترفون هناك عبداً انتقال الزوجة إلى بيت الزوج وأهله بعد الزواج فإن هذا المبدأ لا يوضع في كثير من الأحيان موضع التنفيذ إلا حين تنجب المرأة ذكراً بالفعل . فالزواج يتم في هذه الحالات في بيت أهل الزوجة ، ويعيش الزوج هناك حتى تلد الزوجة ولداً هو الذي يسهل لها مهمة الانتقال إلى بيت عائلة الزوج .

ومع أن الاتجاه العام في الدراسات الأنثروبولوجية في القرن الماضي كان ينحرف نحو الدراسة الوصفية البحتة . فإن بعض العلماء الأوائل في ذلك القرن كانوا يدركون وجود العلاقة القوية بين كل نظم المجتمع وتشابك المظاهر الاجتماعية وتفاعلها بعضها مع بعض ، ومع ذلك لم يحاول واحد منهم تحليل هذه العلاقات وتتبعها بالدرس . فريشرز Rivera مثلا يعترف صراحة . بأن الحياة الدينية والاجتماعية عند التودا تُولف كلها نسيجاً معقداً من الأفعال والممارسات المتداخلة بعضها في بعض بشكل وثيق محكم ، إلى حد أنني بمجرد أن أبدأ في فحص أي مظهر واحد من مظاهر حياتهم كنت أحصل على معلومات وافية تتصل بنواح أخرى مختلفة كل الاختلاف . (١) . ولكن بدلاً من أن يحلل هذه العلاقات ، كما يفعل العلماء المحدثون ، كان ريفرز يضيّق بذلك التداخل أو الترابط الذي كان يعوقه عن مهمته الأصلية وهي فصل كل نظام اجتماعي على حدة وإبرازه كوحدة لها كيانها الذاتي المتميز . فقد كان ريفرز وغيره من العلماء في القرن التاسع عشر وبداية هذا القرن يعتقدون أن المسح السليم في الأنثروبولوجيا الاجتماعية يتلخص في وصف الوقائع والأحداث والعادات وصفاً دقيقاً ، ثم تقديم نظرية خاصة يبتكرها الباحث ابتكاراً ويحاول أن يسرّبها الوقائع المشاهدة والنظم المدروسة دون أن تكون هذه النظرية مترتبة بالضرورة على تلك الوقائع والمشاهدات (٢) .

Rivers (W. H. R.) : *The Tadas*, p. 10. (١)

Fortes (M) : "Analysis and Description in Social Anthropology" p. 2. (٢)

وعلى العموم ، فالخاصية الأساسية المشتركة بين كل الدراسات الأنثروبولوجية الآن هي محاولة إظهار هذه الناحية التكاملية في المجتمع . وأياً ما تكون هذه المجتمعات المدروسة ، وأياً ما تكون العناوين التي تظهر هذه الدراسات تحتها فإنها جميعاً تتحدث عن موضوعات بعينها : البيئة ؛ نظام القرابة والزواج ، النظام السياسي والضغط الاجتماعي ؛ النظام الاقتصادي ؛ القيم الروحية والخلقية ؛ المعتقدات بما فيها السحر والدين . وقد يختلف ترتيب هذه الموضوعات كما يتفاوت مدى التركيز على موضوع دون غيره من بحث لآخر . ولكنها كلها تتوافر ، ولا بد ، بشكل ما في البحث .

وتمتاز الدراسة التكاملية عن المحاولات الأولى في القرن التاسع عشر وكذلك عن كتابات لين وديبوا وغيرهما ، بأن لها اتجاهها عاماً محددًا تميز فيه ، كما أنها تعالج مشكلات عديدة . وهذا معناه ضرورة وجود فرض نظري يوجه البحث . والواقع أن كل دراسة أنثروبولوجية الآن هي عبارة عن مناقشة لنظرية اجتماعية أو ناحية معينة منها إلى جانب تسجيلها للوقائع والمشاهدات الملاحظة في المجتمع . فكتاب إيفانز پريتشارد عن النوير وكتاب پريستلي عن الكيمبجيس دراستان في النظرية السياسية ، وكتاب مالينوسكي عن الأرجونوتس (١) وكتاب فيرث عن الصيادين في الملايو (٢) بحثان في النظرية الاقتصادية ، وكتاب رادكليف براون عن الأندمان وكتاب بت ريفرز عن السيريرا في الأندلس وكتاب إيفانز پريتشارد عن الأزاندي (نيام نيام) (٣) دراسات في نظرية القيم وهكذا ، رغم أنها جميعاً لا تغفل التهج التكاملية . فالوقائع والأحداث ليس لها أي معنى أو أهمية في حد ذاتها ، وإنما تكتب معناها الاجتماعي حين توضع في ضوء نظرية عامة . والرأي السائد الآن هو أن الدراسة الأنثروبولوجية - على حد قول إيفانز پريتشارد - دراسة مشكلات ، ونحن نطلب إلى طلبة الأنثروبولوجيا أن يدرسوا

Malinowski (B.): *Argonauts of the Western Pacific*. (London, 1922. (1)
Third impression 1950).

Firth (R.): *Malay Fishermen*. (London, 1946). (2)

Evans-Pritchard (E.E.): *Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande*. (Oxford, 1937). (3)

المشكلات لا الشعوب » (١) . وما دام الأمر كذلك . فيجب ألا نتوقع من الباحث الأنثروبولوجي الآن أن يسجل لنا كل الوقائع والأحداث التي يجمعها أثناء دراسته الحقلية ، كما لا يجب أن ننظر من أى دراسة أنثروبولوجية أن تكون سحلا حافلا وافيًا مفصلا عن تلك الوقائع والظواهرات . فالذى لا شك فيه هو أن الدراسة الأنثروبولوجية الآن لا تعرض لنا إلا جانبًا يسيرًا جدًا من المعلومات التي يجمعها الباحث عن القبيلة أو القرية التي يدرسها ، والمحك الأخير الذي يتحكم في اختيار ما يذكره في دراسته من تلك المعلومات هو مدى تماشيها واتفاقها مع الاتجاه العام للدراسة ، ومدى نفعها في تفهم المشكلة التي أثارها هذه المعلومات ذاتها في ذهن الباحث (٢) .

وقد ترتب على ذلك كله أن الأبحاث الأنثروبولوجية تكتب الآن على مستوى معين من التجريد . فالدراسة التحليلية البنائية لن تيسر إلا حين يرتفع الباحث في تفكيره عن مستوى الحقائق والمشاهدات العينية الجزئية . أو الوقائع المحسوسة « ostensive facts » إذا أبيع لنا أن نتكلم هنا بلغة العلم الطبيعي .

وتفاوتت درجة التجريد من بحث لآخر تفاوتًا شديدًا . ويرجع هذا التفاوت إلى مدى قدرة الباحث على التحرر من قيود تلك الوقائع البادية للمسوسة ، أى عن الأحداث والأفعال الاجتماعية الجزئية وعن الأفراد الذين تصدر عنهم هذه الأفعال . ثم إلى مدى اتساع دائرة العلاقات التي يدرسها وتنوع هذه العلاقات . فكلما اتسعت هذه الدائرة وتنوعت ارتفع مستوى التحليل البنائي . وبالكال مستوى التجريد . صحيح إن معظم الدراسات التي نشرت حتى الآن لا تستخدم في تحليلاتها إلا عددًا قليلًا من المفاهيم والتصورات المحددة ، بل إن هذه التصورات نفسها ليست على درجة عالية من التجريد لأنها في الواقع لا تعدو أن تكون ألفاظًا ومصطلحات تمثل زمرا اجتماعية أو العلاقات بين هذه الازمر مثل كلمة « مجتمع » أو « قبيلة » أو « بطن » أو « ثقافة » . بيد أن مفهومات وتصورات أخرى أكثر تجريدًا بدأت تجد

Evans-Pritchard : *Social Anthropology*; p. 87.

(١)

Ibid. pp. 81—88. Fortes : *op. cit.*, pp. 2—3; Kaufmann (F): *Methodology* (٢) of the Social Sciences, pp. 67- 77.

طريقها إلى الأبحاث الحديثة التي ظهرت في السوات الأخيرة مثل تصور « البناء الاجتماعي » و « الزمان البنائي » و « المكان البنائي » وغيرها ، كما بدأ العلماء يفسرون العلاقات بين الزمر الاجتماعية المختلفة في الفاظ وحدود وتصورات أكثر تجريدًا . ولعل أشهر هذه التصورات وأكثرها استخدامًا هي فكرة الانشقاق والالتحام *fission and fusion* التي أدخلها إيفانز بريتشارد إلى ميدان الأنثروبولوجيا واستخدمها في تحليله البنائي لنظام القرابة والنظام السياسي والتوزيع الإقليمي ونظام طبقات العمر عند النوير (١) .

ويلاحظ هنا أن إيفانز بريتشارد وتلاميذه وأتباعه في أكسفورد - وهم يمثلون حركة قوية جدا في الأنثروبولوجيا الاجتماعية - لم يعودوا يهتمون اهتماما كبيرا بالعلاقات بين الأفراد أو حتى بين الزمر الاجتماعية الصغيرة القابلة للتغير السريع . فهم يرون أنه لكي تبلغ الدراسة مستوى عاليا من التجريد والتحليل البنائي لا بد من التركيز على دراسة الجماعات التي تتميز بدرجة عالية من التماسك ، والتي تثبت قدرتها على البقاء والاستمرار والصمود ضد عوامل التغير لأطوار وقت ممكن ، بحيث تحتفظ على مر الأجيال بكيانها وهيكلها العام رغم تغير الأفراد الذين يؤلفونها ، كما هو الحال في البنية *lineage* مثلا أو طبقة العمر *age-set* . فالعائلة عند إيفانز بريتشارد ليست جماعة بنائية « لأنه ليس تمت علاقات ثابتة ودائمة في العائلة كجماعة ، كما أن العائلة تموت بموت أفرادها . وقد تظهر عائلات جديدة ، ولكن العائلات القديمة تكون قد زالت وفنيت إلى الأبد » (٢) .

ولذلك فإن كتابه عن النوير (الذي يعرف فيه بأنه كتبه على مستوى من التجريد أعلى من المستوى المألوف في الدراسات الأنثروبولوجية ، والذي يمثل ثورة حقيقية في البحث الأنثروبولوجي من هذه الناحية) ، لا يكاد يعرض للعائلة إلا في حالة الاستشهاد وضرب الأمثلة للتوضيح .

Evans-Pritchard: *The Nuer*, pp. 262-66. Firth: *Elements of Social Organization*, pp. 26-27; Nadel (S.F.): *The Foundations of Social Anthropology*, pp. 80-82; Whitehead (A.N.): *Adventures of Ideas*, p. 136

Evans-Pritchard: *Ibid.*, p. 262

(٢)

تطلب الدراسة التكاملية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية أن يقصر الباحث اهتمامه على مجتمع واحد معين أو على ثقافة واحدة بالذات ، بغية دراستها دراسة شديدة التركيز للتعرف على كل النظم الاجتماعية في ذلك المجتمع أو تلك الثقافة ، ثم تحليل أنواع العلاقات القائمة بين هذه النظم . ولن يتحقق هذا المطلب على أكمل وجه إلا باتصال الباحث اتصالا مباشرا بالمجتمع الذى يدرسه ؛ وهذا معناه الدراسة الحقلية field work التى تعتبر شرطا جوهريا في الأبحاث الأنثروبولوجية الآن . فالأنثروبولوجيا الاجتماعية تعتمد في المحل الأول على الملاحظة المباشرة ، وإن كان ذلك لا يمنع الباحث من الاستعانة بالكتابات الأخرى التى تكون قد ظهرت عن ذلك المجتمع . والاتجاه إلى الدراسة الحقلية تطور حديث نسبيا في تاريخ الأنثروبولوجيا . فقد كان الأنثروبولوجيون الأوائل يعتمدون ، كما قلنا من قبل ، على تقارير وكتابات الرحالة والمبشرين ؛ ولكن هؤلاء كانت تقصيمهم ولا شك الخبرة والمران الكافيان لضبط الملاحظة ؛ كما أن معظم ملاحظاتهم كانت تنصب على العادات الغريبة غير المألوفة دون غيرها ؛ أى أنهم لم يكونوا — من وجهة النظر العلمية البحتة — يعرفون كيف يلاحظون أو ماذا يلاحظون . فالشيء الذى يسترعى الانتباه حقا هو أن العدد الأكبر من علماء الأنثروبولوجيا في القرن الماضى من أمثال فريزر Frazer وماكلينان McLennan والأب شيت F. Schmidt وغيرهم من أئمة التفكير الأنثروبولوجى النظرى ، لم يخطر ببالهم قط أن يزوروا إحدى تلك القبائل البدائية التى كانوا يكتبون عنها من بعد . وما يقال عن هؤلاء يصدق على دوركيم Durkheim الذى أثرت نظرياته تأثيرا كبيرا جدا في تطور وتبلور تفكير رادكليف براون ومدرسته . أما نفر القليل من هؤلاء الأنثروبولوجيين الأوائل مثل تايلور Tylor وباستيان Bastian الذين قاموا برحلات كثيرة زاروا أثناءها عددا كبيرا من الشعوب والقبائل البدائية ، فلم يقم واحد منهم بدراسة منهجية مركزة intensive لأى شعب واحد منها على وجه التخصيص .

ويرجع أكبر الفضل في التنبؤ إلى أهمية الدراسات الحقلية إلى بعثة جامعة
كامبردج في أواخر القرن الماضي (١٨٨٨) لدراسة جزر مضائق توريس
Torres Straits Islands الواقعة بين غينيا الجديدة وشمال أستراليا (١) .

وتتوقف الدراسة الحقلية الناجحة على أمرين : الأول يتعلق بحجم المجتمع
المدرّس ، والثاني بالمدّة التي يمضيها الباحث الأنثروبولوجي في ذلك المجتمع .
والإنجاز السائد الآن هو دراسة المجتمعات الصغيرة المحددة تمام التحديد ،
فكلما صغر حجم المجتمع وتحددت رفقته ومساحته وتميزت معالمه وحدوده ،
سهل على الباحث تتبع نظمه الاجتماعية ودراسة نسقه الاجتماعي كوحدة متميزة
واضحة . ولذا كانت معظم الأبحاث التي بأيدينا الآن تتناول شعبا واحدا
أو قبيلة واحدة أو مدينة صغيرة أو قرية أو حتى مصنعا أو محلا تجاريا .
فايفانز بريشارد مثلا يدرس التوير على حدة كما يدرس الأزاندي على حدة ،
ولم يحاول أن يقوم بدراسة حقلية تشمل كل مجموعة الشعوب النيلية
التي يتلرج تحتها التوير والأزاندي . وريستيان يدرس قبيلة الكيسجيس
الذين لا يتعدى عددهم الثمانين ألفا ولا يدرس مجموعة الشعوب السودانية
أو حتى القبائل الناطقة بلغة الناندي . (وهي أحد فروع هذه المجموعة)
التي ينتمي إليها الكيسجيس . ويت ريفرز يكتب بدراسة مدينة Alvalá de
la Sierra التي لا يتجاوز سكانها ثلاثة آلاف شخص ، ولا يدرس
أسبانيا كلها أو حتى الأندلس حيث تقع المدينة . واخيرا نجد جون إمبيري
يتصر دراسته الحقلية على قرية سوهي مورا Suye Mura التي يبلغ تعدادها
١٦٦٣ نسمة ، ولم يدرس اليابان كلها أو إحدى الجزر اليابانية الصغيرة .

واختيار الوحدة الاجتماعية التي يركز فيها الباحث دراسته الحقلية يعتبر
من أشق المسائل التي يقابلها كل أنثروبولوجي في بداية عمله . فالأساس
الأول في التعيين والاختيار هو وجود نسق اجتماعي واضح يستطيع الباحث
تحليله ودراسة العلاقات المتداخلة المتشعبة التي يتألف منها . بيد أن كل زمرة

(١) من الطريف أن نلاحظ أنه لم يكن بين أعضاء هذه البعثة أحد من علماء الأنثروبولوجيا
المختصين وإن كانت نتائج البعثة من الناحية الأنثروبولوجية ودراسة العادات والتقاليد هناك
كانت باهرة رغم أنهم لم يكونوا يقصدون دراستها في أول الأمر . فقد كان رئيس البعثة هدون
A. C. Haddon من علماء الحيوان ، وعن أعضائها ريفرز الذي كان طبيبا وعلميا نفسيا ،
وسليمان C. G. Seligson الذي تخصص في الباثولوجيا والأمراض الفتوتية . وملجونا
هو المستول الأول عن توجيه ايفانز بريشارد إلى دراسة الشعوب والقبائل النيلية .

اجتماعية أياً كان حجمها، لها نسقتها الخاص : كما أن ما نعتبره نسقاً متكاملًا في وحدة اجتماعية معينة قد يؤلف جزءاً من نسقٍ أوسع في وحدة اجتماعية أكبر. وأذكر أنني حين بدأت دراستي للوائح الخارجة في خريف عام 1953 كنت بين أمرين : إما أن أقصر دراستي الحقلية على قرية واحدة من القرى الخمسة الصغيرة التي تتألف منها الواحة وأدرس البناء الاجتماعي لتلك القرية فقط ، وإما أن أقوم بدراسة القرى الخمسة كلها على اعتبار أنها تؤلف وحدة جغرافية واجتماعية وأن لها نسقاً اجتماعياً عاماً ، رغم الفواصل المكانية والصحراء الشاسعة التي تفصل كل قرية عن القرى الأخرى . وعلى أي حال فلا بد للباحث الأنثروبولوجي من أن يهتم في دراسته بأمرين : الأول هو تحليل نسق العلاقات الاجتماعية في داخل المجتمع المعين الذي يدرسه ، والثاني هو تبين إلى أي حد وكيف يتأثر ذلك النسق من العلاقات بتكوينه جزءاً من بناء اجتماعي أكبر⁽¹⁾.

ويتبادل مسألة تحديد الوحدة الاجتماعية تحديد المدة الزمنية للبحث . والعادة أن فترة الدراسة الخفية تستغرق عامين أو أكثر . وعلى أي حال فلا بد من أن يعضى الباحث عاماً كاملاً على الأقل في المجتمع الذي يدرسه حتى يستطيع التعرف على كل مظاهر الحياة وأنواع النشاط الاجتماعي على مدار السنة . والمعلومات التي يحصل عليها الباحث أثناء إقامته في ذلك المجتمع نواتج - وحدها في الأغلب - مادة كتابته ودراسته التحليلية البنائية . فالمجمعات البدائية التي لا يزال علماء الأنثروبولوجيا يولونها الجانب الأكبر من إهتمامهم ليس لها تاريخ مكتوب ، ولهذا يكتب الباحث بإعطاء صورة تكاملية للمجتمع في تلك الفترة المحدودة التي استغرقها دراسته الحقلية . ولهذا أيضاً أسقط معظم العلماء التاريخ من اعتبارهم كوسيلة تساعد على فهم المظاهرات الاجتماعية التي تقع تحت ملاحظتهم المباشرة ، وإن كان ذلك لا يمنع من الاستعانة بالتاريخ كلما تيسر ذلك ، وخاصة في دراسة المجتمعات الأكثر تقدماً . ولا يعنى استخدام التاريخ في ميدان الأنثروبولوجيا البحث عن الأصول الأولى للمظاهرات أو النظم الاجتماعية كما كان يعتقد علماء القرن التاسع عشر . فلم يعد الأنثروبولوجيون المعاصرون يهتمون بإنشاء النظم الاجتماعية وتطويرها ، وكل ما يهتمون به هو... كما قلنا من قبل - وظيفة أي نظام في البناء الاجتماعي ، أي الدور الذي يؤديه ذلك النظام نحو تماسك المجتمع .

وهكذا يتضح لنا أن ميدان البحث الأنثروبولوجي أصبح على العموم أضيّق بكثير الآن عما كان عليه في القرن التاسع عشر . فبينما كان علماء القرن الماضي يحاولون البحث مثلا عن المعنى الاجتماعي للدين في إطلاقه وبدون أي تحديد أو تقييد . يلوس الباحث الأنثروبولوجي الآن المعنى الاجتماعي لتنظيم الدين في قبيلة من القبائل ، أو وظيفة عبادة الأسلاف عند أحد الشعوب الإفريقية التي تتميز نسقها الاجتماعي في نفس الوقت بوجود نظام المدينة الكبيرة المنتسمة الى بدئات أصغر (1) segmentary lineage system كذلك بدلا من أن يحاول دراسة تطور العائلة في جميع أشكالها ويفترض لذلك شكلا معيناً يعتقد أنه هو الأصل الأول الذي تطورت عنه سائر الأشكال المعروفة ، ويلجأ في سبيل ذلك إلى التخمين أو إلى ما يسمى بالتاريخ الظني conjectural history الذي لا يرتكز في الأغلب على حقائق ثابتة ، فإنه يكفي الآن ببحث مشاكل محددة معينة صغيرة مثل دراسة أنماط السلوك وتأثرها بفوارق السن والجنس وعلاقة ذلك كله بالمركز الاجتماعي والوظيفة الدينية وتركيز السلطة في أحد المجتمعات الصغيرة التي يقوم فيها البناء الاجتماعي كله على أساس العصب وروابط القرابة الأبوية . وهكذا . والمعتمد أن هذا التحديد خليق بأن يوصل الى نتائج مثمرة وأنه أقرب الى روح العلم الصحيح من تعميمات القرن التاسع عشر التي كانت تطلق بقصد تفسير ظاهرات عامة . والرأي السائد الآن عند الأنثروبولوجيين هو أننا نستطيع أن نصل إلى معرفة أوفى وأصدق عن طبيعة المجتمع البشري في عمومه بدراسة مجتمعات معينة دراسة مركزة تعتمد على الملاحظة المباشرة ، بقصد التعرف على طبيعة بعض المشكلات المحددة ومحاولة حلها .

وكانت النتيجة الطبيعية من كل هذا الاهتمام بالدراسة الحقلية المقيدة بقيود المكان والزمان أن أصبح عندنا الآن عدد كبير جدا من الأبحاث المتعلقة بقبائل أو مجتمعات صغيرة متفرقة في جميع أنحاء العالم . وقد نشر بعض هذه الأبحاث بالفعل ، ولكن الغالبية العظمى لا تزال في شكل مخطوطات تمتلكها أصحابها أو تحتفظ بها معاهد تدريس الأنثروبولوجيا . وفي مكتبة معهد الأنثروبولوجيا الاجتماعية Institute of Social Anthropology بأكسفورد

مثلاً ما لا يقل عن ثلاثين بحثاً من هذا القبيل . يتعلق معظمها بقبايل وشعوب إفريقية . والذي يتفصّل الآن هو الدراسة المقارنة التي تستخدم هذه المعلومات الهائلة التي بأيدينا للوصول إلى تعميمات كلية . فالواقع أن الدراسات المقارنة لا تزال مهمة في ميدان الأنثروبولوجيا إجمالاً كبيراً على الرغم من أن رادكليف براون لا يرى مانعاً من تسمية الأنثروبولوجيا الاجتماعية باسم علم الاجتماع المقارن Comparative Sociology (١) . ولكن هذه مسألة أخرى نرجو أن نخصّص لها بحثاً منفصلاً .

(١) يقصد رادكليف براون هنا علم الاجتماع كما يفهمه دوركايم وأتباعه وفلاييه في فرنسا . والفرق الوحيد بين علم الاجتماع هذا المفهوم والأنثروبولوجيا الاجتماعية يتحصّر في طريقة دراسة المجتمع . فبينما يتمّ علماء الاجتماع الفرنسيون بالدراسة النظرية التي تصبغ بصيغة فلسفية ، يفضل علماء الأنثروبولوجيا مواجهة الوقائع العينية الملموسة . وقد سبق أن ذكرنا أن دوركايم ، وكذلك معظم العلماء الفرنسيين ، لم يقوموا بأي دراسة حقلية . وقد بدأ بعض شباب العلماء في فرنسا يتجهون أخيراً إلى الدراسات الحقلية . وهؤلاء جميعاً من تلاميذ موسي Mauss وليي ستروس Lévi-Strauss ، ومن أهمهم لوي ديبرونك Louis Dumont الذي درس أحد المجتمعات الصغيرة في جنوب الهند . وعلى أي حال فالاعتقاد متبادل إلى حد كبير جداً بين الطرفين . فعلماء الأنثروبولوجيا يمدون علم الاجتماع بالمعلومات والوقائع التي يستخدمها هؤلاء في صياغة نظرياتهم التي يختبرها الأنثروبولوجيون بدورهم حين يقومون بتلاسيق الحقلية . واضرب لذلك مثلاً : الأول هو نظرية موس التي عرضها لنا في مقاله الشهير "Essai sur le Don" *Année Sociologique* 1923-1924 عن التبادل والتي يتعدّد فيها أمثلة كثيرة عن كتابات مالينوسكي وخاصة عن كتابه Argonauts of the Western Pacific ثم استعان كل الأنثروبولوجيين حتى الآن بهذه النظرية في تفسير نظم التبادل والتهدى بل والتوزيع في المجتمعات التي يدرسونها . والمثل الثاني هو دراسة ل. ل. تشرشيد عن الشعائر الجنائزية في مصر وهو ، تعتمد أمثلة كثيرة على نظرية فان جنيب Van Gennep التي عرضها في كتابه *Les Rites de Passage* (شعائر الانتقال أو شعائر المرور) وعلى دراسة هرتز عن الموت *Hertz: Representation Collective (de la mort) Année Soc. 1905* ولكن كل من فان جنيب وهرتز يقفان نظريتهما على المعلومات والوقائع التي يستمدانها من الأنثروبولوجيين الأوائل ، وهكذا .

ولكن هناك نوازل أُسبب بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع كما يفهم في إنجلترا وأمريكا مثلاً ويمكن تلخيص هذه النوازل فيما يلي :

- (١) يتمّ علم الاجتماع بدراسة مشكلات قائمة بذاتها مثل مشكلة الغذاء أو البضاعة ، أما الأنثروبولوجيا فيتمّ في الغنى الأول بالبناء الاجتماعي كونه كجوهرة شامكة .
- (ب) تعتمد الدراسة الاجتماعية في الأغلب على الوثائق والافتقار والإحصائيات يعكس الدراسة الأنثروبولوجية التي تفضل الاعتماد على ملاحظة الباحث المباشرة وتفحص الإحصائيات .
- (ج) النزعة العملية أو الاتجاه نحو الأصدوح أوضح في الدراسات الاجتماعية ، يعكس الدراسة الأنثروبولوجية التي تتوخى التحليل العنقلي للنظري فسيح .

